فالاستاذ لايرى موسيقياً كالموصلي ولا كبتهوفن . ولا شاعراً كشكسبير ، ولا كالمتنبي . ولا كاتباً كعبد الحميد ولا كابن المقفع ولا كاكولى . فيقول : لانبوغ فى هذه الأيام وينسى أن الذين يتحدث عنهم جميعاً طواهم الموت وأحاطهم القدم بجلاله ، ومحا أسماء منافسيهم الذين كانوا يعيشون معهم وبقيت أسماؤهم وحدهم ، وأن المعاصرين يعيشون معنا ، ونحن نقرأ أسماء النوابغ وأسماء العامة ، أقصد العاديين من الكتاب والفنانين ، ولكن غدا سيموت الجميع ، والأجيال القادمة هى وحدها التى ستدون أسماء المتفوقين الذين عاشت بدائعهم ، وخلدت مؤلفاتهم . وظهرت آثارهم ، عظيمة ومؤثرة وجليلة وستقول هذه الأجيال كما يقول اليوم الاستاذ احمد أمين إن جيلها يخلو من النوابغ وإن الأجيال السابقة هى عهد المتفوقين والمبرزين .

فمثلنا مثل الذى يقف الى جانب الجبل ، لا يرى قمه ، ولا سوافله ، إنما يرى جسما مسطحاً لا تضاريس فيه . فاذا بعد عنه ظهرت معالمه وبانت خطوطه واتضح له أنه عال فى ناحية ومنخفض فى ثانية ، أو قل إن مثلنا مثل الوالد يعيش مع بنيه فلا يدرى أنهم يزدادون طولا مع مرور الزمن ، فاذا غاب عنهم شهراً وعاد أدرك أن هذا أطول من ذاك ، وأن أكبرهم أشد سمرة من أصغرهم ، لأن طول النظر إلى الصورة لايبرز معالمها .

المدارس انتشرت ، والمعارف رخصت ، ولكن النفس البشرية هى هى باستعدادها ، سيبقى النبوغ فيها استعدادا لايضعفه نظام ، ولا يقويه نظام ، إنما يغير فيه قليلا .

لقد طرنا فى السماء ، وغصنا فى الماء ، ولكن لايزال الواحد منا اذا ما خلا إلى نفسه فى القمر ، ثارت شجونه ، وتحركت فى عيونه شؤونه ، تماما كما يفعل ابن الصحراء وراكب الجمل .

وأحفادنا سيقولون — حينما يقرأون مقالنا — إننا تعجلنا الزمن ، فقلنا عن عهدنا إنه عهد لا نبوغ فيه ، وإنهم سيرونه عهدا ككل العهود ، فيه النوابغ وفيه العاديون ، فيه العبالقة وفيه الأقزام .

فتحى رضوان

على هامش رحلتى الى الحجاز

ليلة فى مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقى بجامعة بودابست

أخذ الغسق يهبط بسرعة فى وادى مكة الضيق ، المشبع بهواء الصحراء الجاف ؛ وهنا بدأت خيوط الأصيل الذهبية تتلاشى ثم تختفى دفعة واحدة كأن ستاراً أسدل عليها بغتة ؛ وبعد فترة وجيزة أخذ الليل ينشر خيمته السوداء فنسينا حينذاك ذكريات الغروب الجميلة وأصبحت لدينا كحلم سافر بعيد ، ثم خيم السكون وشمل المدينة كلها .

وكنت أشاهد منظر غروب الشمس من إحدى نوافذ بيتى الصغير فى مكة . ولم ير الديك الذى كان يصيح طيلة النهار داعياً لايقاف صياحه ، كأن عظمة هذا الغروب لم تؤثر فى نفسه ، ولكن الدجاج لاذت بالصمت وراحت تتسلق أقفاصها استعداداً للنوم .

وكان يقع فى طرف فناء البيت الصغير الذى أعد لضيافتنا قسم خاص بالحريم تجلس فى إحدى غرفه سيدة وقور اسمها سنية ، تقرأ القرآن على ضوء مصباح خافت اللون ، على حين كانت ابنتها فاطمة النحيلة الخصر منصرفة إلى اعداد طعام العشاء لارساله إلينا مع إحدى العجائز . وحتى هذه العجوز الشمطاء كانت تتخذ كل الحيطة عند احضارها الطعام بحيث لايظهر وجهها ، وكانت تحمل الصينية على يديها ثم تدفعها بحذر على عتبة الغرفة وتنسل راجعة ، فأقوم بدورى لآخذ الصينية بمجرد وضعها على العتبة . أما الطعام فهو لا يخلو عادة من الأصناف العربية المشبعة بالتوابل

كانت هذه العجوز تحاول كما قلت أن تمنعنى من رؤية وجهها ، ولقد أفلحت فى ذلك إلى حد كبير ، فلم أر منها إلا ذلك الهيكل العظمى ، ولم أسمع من حركتها إلا صوت ذلك القبقاب الخشبى الذى كنت أسمع طقطقته على الدرج

حين صعودها وحين أوبتها إلى الحريم . فالمرأة فى كل زمان ومكان ، هي المرأة ، أو ذلك اللغز الغامض ، فى الغرب وفى الشرق على السواء ، فاذا ما دفعنى حب الاستطلاع لرؤية فاطمة الجميلة ، وليس هذا بمستغرب من رجل مثلى ، أخذت أنظر اليها خلسة من احدى الثغرات ، ويلوح لى أن الفتاة الصغيرة كانت تشعر أيضاً بأن العيون موجهة اليها من خصاص الشباك فكانت تتخذ كل حيطة وحذر فتقفل نوافذها وترخى السدول عليها حتى تمنع عنها تلك النظرات التى تخافها وتخشاها ، ولكن فاتها أن فى الفضاء تياراً خفياً ينشر جاذبية العواطف ، وينبعث من شعاعه شرارة سرعان ما تكون سبباً فى تأجج تلك النيران التى تضيء الحياة بلهيبها . هذه التيارات مخيفة فى الواقع لأنه حين اشتعالها تزيد أوار الحب فى القلوب البشرية ، فتوقظ فيها وسائل الحياة ووسائل الموت دون تفرقة بينهما . أما أنا فلا أخفى عنك انى ارتعدت من هول ذلك التيار ، فرميت رأسى إلى الوراء حياء مخافة أن يقع نظر الفتاة على وأنا أتجسس عليها عن كثب ، ومخافة العار والفضيحة ولا سيما وأنا غريب عن البلاد

فى أرض الحجاز ، تلك البلاد التى لا يوجد فيها من الجنس الأوربى غير شخصى الضعيف ، مرتدياً تلك الملابس الأفرنجية ، والذى تخرج من فمه رطانة لا يفهمها غيره ، كنت مضطراً بحكم البيئة التى تربيت فيها أن أبحث وأدقق فى كل ما يقع نظرى عليه ، ولكن بروح أجنبية . فكان شأنى شأن اللص الذى يتسلل إلى بيت تحت جنح الظلام ، فى وقت هجوع سكانه ، ثم يخشى أن يقوده سوء الطالع فتصدم رجله قطعة من الأثاث ، أو يفتح باباً خلسة ، يد مرتجفة ، بل قد تراه يتلفت ذات اليمين وذات اليسار خائفاً وجلا ، فاذا صادف أن شعوره الاجرامى لم ينبض فى صدره ، فحينذاك يكاد يطير فرحاً لاقتناصه فريسته ، وإذا لم يجد وازعا من ضميره فانه يفخر بانتصاره على ضحيته . ومن الأسف أن هذا الشعور الاجرامى يلازمنا من المهد إلى اللحد ، فأمامنا الرجل العادى الذى يهرع إلى فراشه ليلا على حين نقضيه نحن فى مسامرة النجوم . وفى الوقت الذى يعود هو فيه إلى بيته بعد أن يكون قد اكتسب قوته بعرق جبينه فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى ألوان الشمس العظيمة ساعة غروبها ، ونتعلم منها عن كثب طرق التحول وأمد قبلاتها الحلوة التى تطبعها على سطح الأرض من نعم الطبيعة . أجل يتحتم علينا أن نبحث بدقة وحذر خشية أن نتخبط فى ديجور الظلام كما يتخبط اللص فى الخفاء

انه لأحساس نبيل لو أتيح للانسان أن يكون كشجرة الأرز الباسقة ، تلك الشجرة المغروسة على أعالى القمم ، تنقل عينها من حين إلى آخر على المروج الخضراء والكروم الزمردية ، ولكن هذه الشجرة - وهى سيدة الأشجار - ستبقى على الدوام مهددة بميلها للسقوط فى وسط الأدغال ، حيث الحركة والحياة بين الحشرات والأزهار وبين القطعان فى مراعيها ، وحيث الأطفال يضحكون وحيث تستغرق السعادة فى سباتها العميق

هذه الأفكار مرت سراعاً بمخيلتى ، عند ما كنت أنظر صفوف نوافذ منازل مكة التى تطل على هذا الوادى الضيق ، ثم وقع نظرى على المآذن الشامخة وقد فارقتها أشعة الشمس الذهبية ، كأنها تنادينى أن أقترب منها . وهذه الشمس التى غربت هى بغير نزاع ذلك الصاحب الأمين للأجنبى ، فشمس الصباح وشمس الظهيرة بهما قوة واقتدار مثل قوة الشاب العاشق ، ولكنها على الدوام واحدة لا تتغير ، أى انها لا لون لها ، وتكاد تكون فى الغالب وحشية شاحبة ومزعجة . انها لا شيء سوى القوة الغشوم ، فهى كالآلة ، بيد أنه ينقصها الاحساس ، والصوت ، والضمير ، والشوق . فهذه الشمس التى تغرب ، ليست سوى حب الرجل البالغ ، فالضمير ، والمعرفة ، والفرح ، والأحزان قد تغلبت عليها مئات المرات ، وأخضعتها لسلطانها ، وظلت الآن فى كفاحها تغالبها ، وستظل فى هذا الكفاح الدائم راضية بالحياة ، ممتزجة مع الموت

هنا سمعت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة ، وهنا يجب علينا أن نولى وجوهنا شطر الكعبة المقدسة لنسجد للحى القيوم ، مالك الملك ، الذى خلقنا فسوانا ، وفى قدرته الحياة والموت ، صاحب الأمر الذى إذا أراد شيئاً فانما يقول

له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ، إننا ندعوه ونبتهل إليه فى قعودنا وقيامنا ، إذليس أفضل من الابتهال إلى قدرته ، تلك القدرة الدائمة الأبدية ، فطوبى لمن يخشون ربهم . نعم طوبى لهم وحسن مآب

خيم الظلام المخيف على جميع أطراف مكة ، وفى هذه البقعة الصحراوية الجرداء نرى بيت الله ، ذلك البيت العتيق قبلة الشعوب الاسلامية ، الذين ينسون حطام الدنيا ومتاعبها ويطأون المادة بأقدامهم ويستعيضون عنها بالايمان المطلق ، وهو لعمرى أثمن من كل شيء فى الوجود ، فيتخلصون من شرور الجسد ويصعدون بأرواحهم إلى أعلى عليين . وما أحلى وأطيب سماعك آذان المغرب فى بلاد العرب ، أو على الأقل ما وجدت شيئا أروع منه ، خصوصا وقد قدمت الى هذه الأرض المقدسة لاتطهر من أدرانى وأبغى الثواب والمغفرة ، وسيعلم الانسان عند ما تصعد الروح إلى بارئها ، وعند ما تنهار أعمال الرجال ، فاننا بفطرتنا نلجأ إلى حماية الرب العظيم ، حيث الماء والهواء يحركان الصخور ؛ ولكن على الرغم من ذلك نحاول أن ننشل أنفسنا من وهدة القنوط بقوة الايمان ، تلك القوة التى تخفف عنا عذاب الضمير وتهدىء من ثورة عواطفنا الجامحة ، فتطمئن قلوبنا بذكر الله وتجرى على شفاهنا آيات الكتاب الكريم

أليست كلمات الله العذبة الفصيحة قادرة على أن ترشد الانسان مهما كان زائغ العقيدة إلى الصراط المستقيم ؟

ذلك الصراط الذى وعد الله به عباده المتقين فيرون ضوء الشمس الساطعة فى كل جزء من أجزاء الحياة ، وعند ما تشعر النفس بالكآبة فلاعزاء لها إلا أن تيمم نحو الخالق العظيم لأن الله سبحانه وتعالى يحب من عباده التوسل والضراعة إليه ، والكل يغترفون من فيض نعمائه لأنه رحيم رؤوف بعباده . على ضوء هذه العقيدة اضطجعت فى غرفتى وأغمضت عينى فشعرت بازدياد ضربات قلبى ثم ألفيت نفسى أتلو آية الكرسى ، وهناك شعرت بدمعتين حارتين تنحدران على خدى . ثم أسدل الليل ستاره وخيم السكون على أنحاء المدينة

وبدأ القوم يوقدون مصابيحهم الزيتية ، وحضرت الخادم تحمل طعام العشاء فسرعان ما شعرت بأنى أهبط من طبقات السمو والتفكير فى صفات الخالق إلى حضيض الأرض ، وبعد أن تناولت عشائى نهضت فارتديت سروالى وعصبت رأسى بعصبة أحكمت فوقها عقالا ، ثم يممت شطر جبل أبى قبيس لزيارة صديق الأستاذ عبد الله رافع الذى دعانى مع آخرين لقضاء ليلة ساهرة فى بيته ، فاخترقت فى طريق سوق المدينة ورأيت الشوارع لا تزال مكتظة بالزوار وحجاج البيت الحرام . وكانت دار صديقى حافلة بالضيوف فما كدت أغشى الصالة الكبرى حتى أحسست أنى فى عزلة عن الضوضاء ، وشعرت بالهدوء الشامل والطمأنينة المريحة

وأستطيع أن أقول إن جماعة الوهابيين فى بلاد العرب يحرمون بتاتاً الاجتماع فى الولائم وغيرها ، وحجتهم فى ذلك أنها مخالفة لنصوص الشريعة والسنة ، ويقولون إن فى التقشف الغذاء النفسانى لكل طالب ، ويعززون رأيهم بأن الانسان ما خلق إلا للعبادة والتقوى ، وليس له أن يتوغل فى إعطاء النفس شهواتها لأن الحياة فى ذاتها كلها تعب وقصيرة ؛ وليس الغرض منها أن يتمتع الناس وينغمسون فى شهواتهم ، بيد أنى أرى أنهم يبالغون فى هذا التحريم لأن الله حين نظر إلى التراب الذى خلق منه آدم والذى تكون منه العالم ، سقطت من عينه دمعة ، وهذه الدمعة كانت تحمل شطراً من القلب ومن طبيعته أن يوجد فيه الحب والاحزان وغيرها من الصفات الكامنة الآن فى نفوسنا .

(البقية فى العدد القادم)

السيد عمر مكرم !

انتظر مقالا فى العدد القادم